قضايا الشباب بين العلم والفلسفة

للاستاذ إبراهيم البطراوى

(تتمة)

وفى هذا الكتاب كما فى كل ما كتب جيمز تقريباً نجد أوضح البراهين وأقواها ، تصريحاً أو تلويحاً ، على أن العلم — بعد تجارب مضنية استغرقت القرون الماضية — عجز بل اعترف أنه من المحال عليه أن يجد معلولا من غير علة . ودليله على هذا جميع تجاربه الصحيحة الماضية بدون استثناء ، ولذا وضع قانونه الشهير عن (العلة والمعلول) Cause and Effect

ثم يرينا فى (نجومه) دلائل عظمة الله وقدرته ولطفه وحلمه وعطفه ، تلك الدلائل القوية التى تبهر العقول وتصعقها . وإن أصدق ما يوصف به هذا الكتاب هو أنه تسبيحة العالم .

ثم ينظر إلينا قائلا : وهاكم البرهان الواضح القاطع — بينما أشار إلى كتابه (الكون الناضج) وإذ فيه :

« إن الطبيعة تتجافى الآلات ذات الحركة المستديمة ... ويفسر علم الديناميكا الحرارية كيف أن كل شىء فى الطبيعة يصل إلى حالته النهائية بعملية يطلق عليها : (زيادة درجة التعادل) (١) Entropy

(١) وهى خارج قسمة مقدار الحرارة على درجة الحرارة المطلقة ، وهى تتزايد فى الطبيعة باستمرار لأن مجموعها فناء الذرات الكونية من نجوم وأجرام ... عن طريق الإشعاع Radiation وهذا لا ينقطع لحظة من الزمن . ولنلاحظ على سبيل المثال أن الشمس وحدها تصدر من الإشعاع ما يكاد يضل بالضبط ٤٠٠ مليوناً من الأطنان فى الدقيقة الواحدة ، وهو يساوى متوسط ما يمر من الماء تحت جسر لندن ١٠٠٠٠ مرة تقريباً

خسرت كثيراً من الجندين فى هذه الأقطار . ومن هنا نرى أن تخفيض إيرلندا معدل الولادات فيها بترك الزواج يعتبر نتاج سلسلة غريبة من الظروف الاقتصادية قويت بإخلاص أهلها للكنيسة ، وأن قصتها تعتبر نموذجاً لطريقة إنقاص عدد السكان فى العالم وهى الطريقة التى يمكن أن تلفت انتباه مالتوس الأخلاق أكثر من جلبها انتباه مالتوس العالم علاوة على دلالتها على مبلغ جسامة الوسائل التى يحتاج إليها لمزيفة تفسير مالتوس .

(البقية فى العدد القادم) فؤاد طرزى

فدرجة التعادل إذن يجب أن تزيد على الدوام ، وهى لا تقف عن الزيادة إلا إذا وصلت إلى حد لا يمكن أن تتعداه . فإذا وصل الكون إلى هذه المرحلة وأصبحت كل زيادة أخرى فى درجة التعادل (أنتروبى) مستحيلة ، فى الكون ...

« وقانون الطبيعة دائماً هو أحد شيئين ليس غير : الفناء أو الموت . وهى لا تجيز إلا سكوناً واحداً هو سكون القبر ...

وعلى أصح الشاهدات العلمية نجد أن درجة التعادل الكونية فى ازدياد مستمر سريع ، وإذن فقد كانت لها بالضرورة بداية وأنه حدث ما يمكن أن يسمى (خلقاً) وفى وقت ليس ببعيد بعداً لا نهائياً »

وإن نهائية الفضاء والزمن على هذا النحو لتضطرنا إلى التسليم بأن عملية الخلق عمل من أعمال الفكر » .

« وإن تحديد الثوابت مثل نصف قطر الكون ، وحجمه ، وكهاربه (ليستلزم) وجود الفكر الذى تقاس خصوبته بضخامة هذه الكميات » .

ثم يبين لنا أن الله سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه ، وليس كمثله شىء ، فلا يجوز عليه ما يجوز على خلقه بهذه العبارة الرائعة : « إن الخالق القادر على كل شىء ، والذى لا يخضع للقيود أياً كان نوعها ، لا يقيد نفسه بالقوانين التى تسود هذا الكون »

ولم يكتف بهذا بل نزهه سبحانه عن الحلول فى زمان أو مكان (لأنه خالق الزمان والمكان) بنفس الحجة القاطعة والأسلوب المذهب الرنان .

فالزمن والفضاء اللذان هما إطار الفكر قد كان وجودهما من غير شك جزءاً من هذه العملية — عملية الخلق — وقد كانت علوم الهيئة البدائية تتخيل خالقاً يعمل فى الفضاء والزمن فيصوغ الشمس والقمر والنجوم من مادة غفل موجودة من قبل ؛ أما النظرية العلمية الحديثة ، فإنها تضطرنا إلى أن ننظر إلى الخالق على أنه يعمل خارج الفضاء والزمن اللذين هما جزء من خلقه ، كما يعمل المصور خارج لوحته .

وهذا يقابل قول أوغسطين : « لم يخلق الله الكون فى زمن بل خلقه مع الزمن » .

والحق أن هذا الرأى قديم يرجع إلى زمن أفلاطون الذى يقول : « خلق الزمن هو والسموات فى وقت واحد ، وذلك

لكي يفنيا معاً إذا أريد فناؤهما . هكذا كان عقل الله وفكره في خلق الزمن »

وحين يهم جينز بتوديعنا لا يفوته أن يؤكد كلامه بقوله : « والآن فإن الآراء متفقة إلى حد كبير يكاد في الجانب الطبيعي من العلم يقرب من الإجماع — على أن نهر المعرفة يتجه نحو هذه الحقيقة وهي أن الكون بدأ بلوح أكثر شبهاً بفكر عظيم منه بآلة عظيمة ... » .

« ولسنا نقصد بهذا العقل بطبيعة الحال عقولنا الفردية — إنما نعني ذلك العقل الكلي الذي توجد فيه على شكل يفكر تلك الذرات التي نشأت منها عقولنا » .

وهذا ما يعنيه بعض الفلاسفة المتقدمين من تحويل الفكر إلى مادة ، وما يعنيه العلم الحديث اليوم من محاولات لعله يستطيع رداً الطاقة أو تحويلها إلى مادة .

وفي قول جينز تفسير (إلى حد ما) لمعنى قوله تعالى : إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

على أنه يجب أن نكون أكثر حذراً ولياقة في تمييز حقائق العلم من فروضه وآرائه : فالقانون أو الحقيقة نصدقها ، وما عدا ذلك يكون حكمه حكم غيره من الآراء الإنسانية . وعلى حد تعبير الغزالي:

العاقل يقتدي بسيد العقلاء علي رضي الله عنه حيث قال : « لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله . فالعاقل يعرف الحق ثم ينظر في نفس القول : فإن كان حقاً قبله سواء كان قائله مبطلا أو محقاً ، بل ربما يحرص على انتزاع الحق من كلام أهل الضلال عالماً بأن معدن الذهب الرغام » اهـ

هذا هو العلم ، وإن شئنا قلنا الدين ؛ فكلاهما فطرة الله . وكلاهما في تراوحه — في حدود قوانينه ومجموعاته الأزلية — خاضع لإرادة الله وسننه التي منها سنة التطور والارتقاء .

ولعل خير ما أوجهه إلى الشباب تلك العبارة الطريفة التي وجهها إليهم وإلى الشيوخ أيضاً قبل اليوم بقرون ، الفكر العبقري الإمام الغزالي . قال رحمه الله في كتابه المنقذ من الضلال) : « إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؛ فظهر لي أن العلم اليقين هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم . ولا يتسع القلب (أي العقل) لتقدير ذلك ؛ بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكا وإمكاناً : فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة وقال قائل لا ؛ بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها وشاهدت ذلك منه ؛ لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ؛ فأما الشك فيما علمته فلا .

ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه على هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقين » اهـ

***

تلكم هي قضية الشباب وقائمها وملابساتها . وهذا غاية ما أمكن أن نصل إليه من وسائل علاجها ، والتاريخ بحوادثه شاهدها وأنتم قضاتها العدول ، فالحكم لها أو عليها وبما يترتب على ذلك منوط بذمتكم أنتم ، فعليكم وحدكم تقع جميع تبعاته .

وقبل أن أختم كلامي أرى واجب العلم يحتم علي أن أثبت ضمن أقوالي هذه الحقيقة :

وهي أننا سجلنا في أمتنا المحلي هذه الأيام ظاهرة تنبئ القرائن أنها تتجه وصالح قضيتنا .

ومهما يكن الباعث عليها فإنا على كل حال نرجو أن نستفيد منها إلى حد كبير .

إبراهيم الطراوي

مراجع لم تذكر في ثنايا البحث :

(١) الرد على الدهريين (للسيد الأفغاني)
(٢) تهافت الفلاسفة (للامام الغزالي)
(٣) النقد التحليلي (للدكتور محمد أحمد الغمراوي)
(٤) سنن الله الكونية (" " " ")
(٥) أسرار الفطرة : (الدكتور الغمراوي والدكتور الكرداني بك)
(٦) الكون الناطق : ت (الأستاذ مرسي)
(٧) الثورة الفرنسية (للدكتور صبري)
(٨) الكاتب المصري
(٩) مذهب هارون للدكتور سوريال